سراج الربيع..

دماء

قصة الشهيد ربيع وهبي "سراج"

أمراء النصر والتحرير

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL - MAAREF ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

سراج الربيع.. دماء

قصة الشهيد

ربيع محمد وهبي (سراج)

بطل مواجهة عقماتا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿... والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

● القصة: سراج الربيع.. دماء.

● الكاتبة: نسرين إسماعيل دريس.

نالت القصة جائزة الوحدة الثقافية لحزب الله - بيروت.

● الناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.

● الطبعة: الاولى - ٢٠٠١م.

بطاقة هوية

الاسم والشهرة: ربيع وهبي.

اســـــم الأب: محمد .

اســـــم الأم: سميرة صالحة.

مـــواليـــد: جباع الحلاوي ١٩٧٦/٥/٤ .

رقم السجـــل: ١٥٥٥ .

تـــاريخ الاستشهاد: ١٩٩٦/٩/١٩ .

مكـــان الإستشهاد: مزرعة عقماتا قرب مقام سجد(ع).

مكان دفنـــــــه: روضة الشهيدين - بيروت.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ذلك الفوز العظيم﴾. صدق الله العلي العظيم

شهداؤنا عظماؤنا..

شهداؤنا تاريخنا..

شهداؤنا كل أمجادنا..

شهداؤنا هم قرآننا الناطق..

هم أبناء أبي عبد الله الحسين..

كما أراد أبو عبد الله الحسين

سيد شهداء المقاومة الاسلامية السيد عباس الموسوي قدس سره.

إلى الذي حين رحل،
ارتدى الكون فصول شتاء..
إلى من ترك القلب يذوي
في دائرة بكاء..
إلى ربيع..
نسرين

من وصيته

«يمكنني أن أستقبل الموت بنفس مطمئنة واثقة، وحينما ألتزم بحدود الله وأطبّق تعاليمه في هذه الحياة فإن أولياء الله لا يزعجهم الموت، بل يعتبرونه بطاقة دعوة لدخول جنَّة الله (...)، أنا لن أموت بل ستبدأ حياة جديدة لا نهاية لها حيث يقول الله تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن يُقتَل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون﴾**، ومن هذا المنطلق أصبح القتل في سبيل الله أمنية أُلحُّ عليها وأدعو الله أن يرزقني إياها».

ربيع محمد وهبي (سراج)

وردة في مهب الريح

استوت الشمس على عرش الظهيرة، وأرسلت لهيب حرارتها فوق رمال صحراء قلبي المسكون بالصمت.. ظلّ أنا، اتخذت في العمر الموحش الأيام جملاً لأنتهي عند أفق الحياة، وكل ما لديَّ من الزاد.. بعضٌ من ذكرياتك، وبقايا من عطرك الساكن في زوايا الفؤاد..

أيّ زمان سافرَ فيك؟ أيّ مكان تسكن أنت؟ وبعد رحيلك استوطن اللاشيء مسافات العمر، كأنَّ الوجود مهمة(*)، وأنا فيه مسافر أبحث عن معنى للبقاء، فصرت ألمح وجهك كسراب واحة يهفو إليها

(*) القفر الأجرد.

الفؤاد مشتاقاً، وكلما قال: «اقتربتُ»، ناداه المدى: «مرآة رمال»!! ويضيع الوصول اليك بين حلم وخيال.

وبين شوقٍ وظمأ .. هاجرت الروح إليك، تناجيك.. تغنيك.. تناديك.. وما من مجيب سوى صوت قطرة دمع هَوَت فوق جفاف القلب، فتردد صداها في بئر الأحزان.. في قلبي.. وحفرت بنارها اسمك: «ربيع».

لا تلمني يا ربيع العمر، يا كلّ العمر، إن كسرت الدموع قيود الأهداب، فإنني كلما رددت اسمك اعتراني صقيع الغياب، لماذا حين رحلت ارتدى الكون فصول شتاء؟ لماذا كلما قالوا انك رحلت زاد حضورك وشعرت أنك في الحياة، وإذا ما راحت عينايَ تبحث عنك.. لم تجد غير الفراغ..

لا زلت أنتظر قدومك يا ربيع، وأعدُّ ساعات عمري.. لا زلت أقف على الشبّاك المطلّ على طريق قدومك، أمسحُ عنه غشاوة البرد، وأقول لقلبي: سيأتي.. سيأتي حاملاً معه باقة من الأمنيات،

سيأتي ليدفىء قلبي كعصفور خائف من المطر..
سيأتي.. ويطول يا ربيع وقوفي.. يطول.. أمطرت، وأمطرت.. ولم تأتِ.. والغيم لم يفصح بعدُ عن وجه القمر..

«مطر.. مطر..

أتعلم أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع، كالحب، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطر!

ومقلتاك تعليفان بي مع المطر..»(*).

أتراه يكفي العمر ثمناً لكي يعود.. أتراك يوماً تعود؟ سكّر النعاس بمقلتيك يا حبيب فنم.. فأنت حينما تغفو.. تخفق رايات النصر وتعلو البيارق، يا من لم يكتب سطور حياته إلاَّ برصاص البنادق.. ليس

(*) أنشودة المطر، بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص ٤٧٤.

هذا موتاً الذي أسدل ستائره على عينيك، ولن يغطي ثلج الشتاء البنفسج المزهر على وجنتيك، فبسمتك تحطم كل معاني الرقاد..

أنت الربيع الذي يطلّ من خلف نوافذ الحزن يزرع الحبّ والأمل في النفوس البائسة، فتخضوضر الأماني باقات أزهار في حديقة القلوب، وترتل العصافير صلوات عشق تمجّد إسم الرب إله الكون، على صوت إيقاعات يرددها السائرون نحو الله:

إلهي.. تركتُ الخلقَ طُراً في هواك..

هذا الخريف قد سكن بعدك شوارع الدنيا، وأنا.. يا ربيع وردةٌ أيبسها صقيع النوى، وشرَّدتها الرياح، فاستقرَّت عند قبرك عساها تندثر تحت التراب فتصبح وشاحاً يلفّ رفاتك..

سامحني يا سراج الليل، بل يا قمره، فما لي من سلوىً في هذه الدنيا إلاَّك وذكرياتك.. وصفحات عمرك التي أقلّبها كل يوم لأعرفك أكثر.. لم يعد لي

غير هذه الأوراق التي تضمّك بين سطورها، أقرأها في غربة الظلام وحدي وتواسي أحزاني دمعتي وشمعة من فرط آلامها تذوي..

أتراهُ يا ربيع

(صار يكفي فرحُ الأجراس يأتي من بعيد)(*)؟!

(*) ثلاث أمنيات على بوابة السنة الجديدة، الشاعر مظفر النواب.

بدايات الربيع..

الزمان: الرابع من أيار، من عام ألفٍ وتسعمئة وست وسبعين.

المكان: قرية تغفو على ربى إقليم التفاح، إسمها، جباع الحلاوي.

انزلقت قطرة الندى البرَّاقة من على ورقة ارتدت ثوبها الأخضر حديثاً، وهوَت إلى الأرض الطريَّة تعانق التراب البارد.

تثائب الصباح على مقلتي «جباع»، وغسل المطر الخفيف شوارعها الخالية إلاَّ من بعض الفلاَّحين العاشقين للأرض، والأولاد المتلهّفين للعب في الحقول. وبين قطرة مطرٍ وشعاع الشمس الخجول..

أنجبت التلال «قوس قزح»، فراح الأولاد يراشقونه بالحجارة من بعيد، متسابقين لتمزيق ألوانه الزاهية.

رفع أحد الفلاحين رأسه، قائلاً بصوت عالٍ، وهو يغرس تعبه بين أثلام التراب: «انظروا.. قوس قزح بثمانية ألوان.. سبحان الله.. سبحان الله.. هذه السنة، سنة خير، قوس قزح زادت ألوانه لوناً جديداً.. لونٌ اسمه الفرح..».

ومع اكتمال قرص الشمس، بدأ قوس قزح بالتلاشي رويداً رويداً، غير أن اللون الثامن، ارتسم بسمة على ثغر مولود أبصر نور الحياة حديثاً، في بيت متواضع أواخر القرية، صبيٌّ جميل، وجهه كإطلالة الربيع بعد شتاء عاصف، صبيٌّ أسموه «ربيع»، ربيع محمد وهبي.

كان خامس أخوته، وُلِد في زمن الحرب، زمن الهرب من القذائف الى القذائف. قضى سنيّ حياته الأولى في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت في محلة

حارة حريك ـ شارع دكاش، لم يعرف في هذه الدنيا غير الحبّ والعطف.. دائم البحث هو، عن شيء لا أحد يعرفه.. غارقٌ في صمته.. مبتسمٌ ولو في أصعب الأوقات.

انتقل في عدة مدارس في بيروت، ولم يعرف ربيع معنى اللعب واللهو مثل بقية الأولاد، أبناء جيله، بل كان دائم التأمل والشرود، منطوياً على نفسه.

وعلى الرغم من أنه ترعرع بعيداً عن قريته جباع، إلاَّ أنه بقي يحنُّ إليها، حنوّ الطفل لحضن أمه..

في العام ١٩٨٩، بدأت مرحلة جديدة في الحرب اللبنانية الأهلية، ففي الحرب التي سُميت بـ«حرب التحرير»(*) والتي راحت تلقي بجام غضبها على كل المناطق، وصارت شوارع الضاحية خاليةً إلاَّ من قلَّة قليلة، حمل محمد وهبي (أبو زهير) أولاده السبعة

(*) حرب التحرير: أطلق هذا الاسم على المعارك التي دارت بين جيش العماد عون والجيش العربي السوري، وذلك في الأعوام ١٩٨٩ إلى ١٩٩٠ تقريبا.

(زهير، ابتسام، لميا، سمية، ربيع، غادة، خضر) الى جباع هرباً من لعنة الحرب التي لا ترحم أحداً، كان ربيع، في ذلك الوقت، يبلغ الثالثة عشرة من عمره تقريباً.

في جباع، بدأ العشق الإلهي يتمرد على القلب، فتخطّى الشوق في نفسه حدود الشوق، ولم يكن من الصعب عليه أن يهتدي الى سبيل الوصول، فهو لم يعد طفلاً يلعب كغيره في ساحة القرية، أو في حقول جباع الواسعة، بل كان يذهب الى المحور، ومن لا يعرف عرين الأسود في جباع، فمن هناك تحرّك عدد من المجاهدين والشهداء، وهناك كان «أيمن بعلبكي» يحفر على الصخور أمانيه، ورغم فارق السن بينهما، إلاّ أن ربيعاً اتخذ من «أيمن» أعزّ صديق لديه، فكان ينظر اليه، ويتعلم منه، حتى لو لم يكن «أيمن» راضياً عن ذلك، نظراً لصغر سن «ربيع»، ولخوف والديه الشديد عليه، إضافة الى خطورة

المنطقة المتعرضة في أي لحظة للقصف العنيف من قِبَل جيش الاحتلال الصهيوني.

غير أن «ربيع» طاب له الجلوس بين شباب المقاومة، فراح يؤمّن لهم المياه والطعام، ولما تلمحه والدته وهو يقوم بتحضير زوّادة كبيرة من الأكل، تسأله: «لمن كل هذا الطعام؟»، فيجيبها ضاحكاً: «لأصدقائي يا أمي، فقد كنَّا نسبح في النهر».

- ومن هم رفقاؤك أولئك؟ أليس لديهم أهل؟ ليست هذه المرة الأولى التي أراك تأخذ لهم الطعام.

- إنهم جائعون يا أمي، وكنا نسبح في النهر، هذا هو كل الموضوع، أستأذن منك..

لم يعد يجلس ربيع في البيت، فهو إما في المسجد مع الأخوة، أو على المحور، أو برفقة «أيمن».. وفي أحد الأيام افتقدته والدته طوال النهار، فراحت تبحث عنه في شوارع القرية، فلم تجده، لمحت «أيمن» قرب المسجد، فسارت مسرعةً إليه تناديه:

- «أيمن» هل رأيت ربيع؟

- أجابها: «لا يا حاجة».

- يا «أيمن» يا بنيّ، يا حبيبي، ربيع لا يزال صغيراً، أرجو منك أن تدعه وشأنه، ولا تأخذه معك أينما ذهبت، فهو صغير ويتابع دراسته.

- ولكن يا خالتي هو الذي يلحق بنا، وكلما طلبنا منه الذهاب إلى البيت أصرَّ على الحضور، قائلاً: أنا لست صغيراً.

- حسنٌ، إذا رأيته، أرجوك قل له أن يذهب الى المنزل.

نظر إليها بحنوٍ كبير: «لا تخافي عليه فهو قد أصبح شاباً».

وبخطىً وئيدة، عادت أدراجها الى البيت، وقلبها يدعو لله أن يعود ربيع، وإذ بها تلمحه وقد اختبأ منها خلف شجرة وهو يرتدي ثياباً غريبة، ويحمل سلاحاً، حاولت أن تناديه، ولكنه اختفى.

بقي الحـــال هكذا مع ربيع إلى أن عـــادوا الى بيـروت، وبدأت المدارس تفـتح أبوابها. ارتاح قلب «أم زهيـر» قليـلاً، فهنا في بيـروت لا يوجـد «أيمن» ولا محـور، وكان ربيع حينئذٍ يتابع دراسته في مـدرسة حـارة حـريك الـرسمـيـة في الصف الـثـالث المتـوسط، ولكن بعد فترة قصيرة، صار ربيع يغيب عن المدرسة رغم اجتهاده، ولا أحد يعرف أين يتواجد خـلال هذا الوقت. حين عرف أبوه وأخوته بالأمر، استوضحوه، فقال لهم أنه لا يريد أن يتعلم، بل يريد أن يتفرغ في «حزب الله»، استغرب الجميع هذا الطلب وحاولوا اقناعه أنه صغير جداً على التفرغ، وأنَّ الأخوة في المقاومة لن يقبلوا به لصِغر سنه، وأنه عليه أن يتعلم لأهميـة العلم في هذا الزمن، والمقاومة بحاجة الى من يحمل شهادات، وكثيـراً من الأمور التـي ـ ظنوا ـ أنها سترغّبه في البقاء في المدرسة، ولكنه ما لبث أن أعاد الكرّة، فـربيع إمّا في مـركـز كـشـافـة الامـام

المهدي، أو في مكان لا أحد يعرفه، ولكن هذه المرة، حين طالبه أبوه بحلٍ لهذا الوضع، طلب ربيع من أبيه أن يؤمّن له «مصلحة»، فتفاجأ الجميع بذلك، ولكنَّ والده نفَّذ ما طلبه منه «ربيع»، وتكلَّم مع أحد معارفه العاملين في مهنة «كهربائي سيارات» ليدرب «ربيع» عنده، ولكن ربيع ذهب لمدة اسبوعين، ثم انقطع سراً عن العمل!! واختفى فجأة دون أن يخبر أحد بمكانه.. راح الجميع يسأل عنه، فعرفوا أنه لم يعد يذهب الى العمل، بحثوا عنه في كل مكان، عند أصدقائه.. مع الكشاف، فلم يُعثر له على أثر، قالت لهم أم زهير: «ربما يكون في جباع» ـ هذا بعد مرور حوالي ثلاث أيام عن غيابه ـ وفعلاً صعد أبو زهير وزهير الى جباع، التقوا بأيمن في المسجد فأخبرهم أن ربيع في دورة ثقافية، وحين رأوا ربيع طلبا منه النزول معهما الى بيروت ففعل، وفي بيروت وبعد أن نال نصيبه من التوبيخ، قال لهم بكل صراحة:

«أريد أن أصبح مجاهداً، سأتفرغ في المقاومة، لن أحمل بارودة «الخردق» لأصطاد العصافير بعد اليوم، بل سأحمل الرشاش لأقاتل اليهود، من أجل أمتي، من أجل جباع، ومن أجلكم أنتم أيضاً، هذا هو قراري الأخير إلى أن ألقى ربي شهيداً مضرجاً بدمائي إن شاء الله».

أم تبحث عن ولدها

بعد أن اتخذ ربيع قراره بالالتحاق بقافلة المجاهدين، كان لا بدَّ له من أن يخضع لعدة دورات عسكرية وثقافية تؤهّله للقيام بواجبه على أكمل وجه، وعلى الرغم من أنه كان يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، إلاَّ أنه سريعاً ما حسم في نفسه خياره، فالتحق بدورة خاصة، دون أن يخبر أحداً.

ففي وقت ذهب وأباه وأخاه الصغير (خضر) الى القرية لقضاء عمل صغير، على أن توافيه أم زهير بعد ثلاثة أيام، وبالفعل، حين وصلت، استغربت السكون المخيّم على جدران المنزل، نادت: «ربيع.. خضر»، فلم يجبها أحد، دخلت الى غرفة النوم فوجدت زوجها وخضر نائمين، بحثت عن ربيع فلم

تجده، اندهشت للأمر، فأيقظت زوجها وابنها، وسألتهما عن ربيع، فأجابها أبو زهير: «انه كان نائماً».

- ولكن لم أجده، هو ليس هنا. قالت أم زهير وقد بدأ التوتر يستولي على أعصابها.

- ربما خرج قليلاً، الآن يعود.

مرَّ النهار، و«ربيع» لم يرجع الى البيت، فلم يكن أمامها سوى أن تسأل «أيمن» فهو الوحيد الذي يبلِّغه «ربيع» عن وجهته، بحثت عن «أيمن» حتى وجدته وسألته عن ربيع فأجابها:

- ربيع في دورة ثقافية، أرجو منك أن تهدأي يا خالتي ولا تقلقي عليه، سيغيب ثلاثة أيام ويعود بإذن الله.

- دورة ثقافية!! ولكنه لم يقل لي، لم يقل لأحد، يا إلهي.. يا إلهي ماذا أفعل..

- أرجو منك أن لا تقلقي، سيعود قريباً..

- متى سيعود؟ الأيام عندكم شهور، لقد رافقك حتى أصبح مثلك، وأنت لم تتركه، قلتُ لك يا أيمن، ربيع لا يزال صغيراً .. ربيع يتابع دراسته، فلا هو سمع مني ولا أنت، والآن أين هو؟ في دورة ثقافية، تقولها بكل بساطة..

أيمن: ربيع يعرف جيداً طريقه، ولم أحاول لا أنا ولا غيري أن نؤثر عليه، وحين كنت أطلب منه الرحيل كان يصر على البقاء، ثم أن «ربيع» أصبح شاباً، كل شيء يا خالة أم زهير في هذه الدنيا يستطيع المرء أن يؤثر عليه على رأي الآخرين، إلاَّ هذه الطريق، فلا أحد يستطيع أن يحسم هكذا قرار غير قلب الفرد لا أحد غيره..أوكِلي أمرك إلى الله، وادعي له، فهو بحاجة الى دعائك، أستأذنك، السلام عليكم..

التهبت النار في قلب أم زهير، ومرَّت الأيام الثلاثة على روحها، والقلق والحزن قد استبدَّا بها، وربيع لم يعد. عادوا الى بيروت، وانتظروا، وما من خبر عن

ربيع..

خمسة عشر يوماً مضت، لم تترك أم زهير أحداً لم تسأله عنه، ولكن أحداً لم يطفىء النار الموقدة في نفسها التي تأكل أحشاءها، صارت الأيام والليالي لحظات انتظار قلقة على الشرفة، والطعام سجائر وقهوة باردة.. وأخيراً، ما عاد القلب يحتمل أكثر، فأشار عليها أحدهم بأن تذهب الى البقاع، فهناك «مركز الدورات»، وأن تقصد منزل والد السيد عباس الموسوي (رض)، وتشرح له حالها وهو بالتأكيد سيساعدها.

وفعلاً، في فجر اليوم التالي، كانت تستقل سيارة أجرة باتجاه البقاع، وحين وصلت الى قرية «النبي شيت»، سألت عن منزل والد السيد عباس (رض)، وصلت الى منزله، وقفت على الباب وهي تبكي، شاحبة اللون كمن فقد عزيزاً ولن يراه، قائلةً له: «توكّلت على الله، وأتيت إليك، أرجو منك أن

تساعدني، أبحث عن ولدي، عمره سبعة عشر عاماً، قالوا أنك تستطيع أن تساعدني وترشدني الى مكانه.. أرجو منك مساعدتي..».

استغرب السيد لأمرها، وأدخلها وزوجته داره، وحاولا أن يهدّئا من روعها، ووعدها بأنه سيساعدها بقدر ما يستطيع. وفعلاً في اليوم الثاني، بدأ السيد اتصالاته مع الأخوة الذين تربطه بهم علاقة، فعرف أين هو ربيع..

قال لها: «يا سيدتي، انك في حال يرثى لها، عودي الى بيروت وسيكون ربيع عندك إن شاء الله بعد يومين».

ـ وهل عرفت أين هو؟

ـ نعم، انه يخضع لدورة، وقد شارفت على نهايتها، ولكن أنا آسف، فأنت لن تستطيعي أن تريه نظراً لما في ذلك من صعوبة..

أجابته وهي تبكي: «لا، لن أبرح مكاني قبل أن أرى

«ربيع»، لن أبرح مكاني قبل أن أراه، قبل أن أحضنه، وأتحسس وجهه، أرجو منك، أتوسل اليك..».

ـ ولكن يا حاجة، هذا الأمر في غاية الصعوبة، ربيع ليس في مكان تستطيعين الذهاب اليه، هو في دورة عسكرية، قدّري ذلك، أرجو منك أن تتفهمي هذا الأمر..

ـ تفهَّم أنت أمري، أنا إن لم أرَ «ربيع» أموت، مضى عشرون يوماً ولم أره..

قالت هذا وغابت عن الوعي، وحين استيقظت، سمعت السيد يقوم باتصالات عرفت من خلالها أنه يحاول جهده أن ينفّذ ما تبغيه، وهو رؤية «ربيع»..

وبعد عدة اتصالات مع الإخوة المجاهدين، وافقوا أن تذهب لترى ابنها، وبالفعل، في الصباح الباكر أتت سيارة فيها عدد من الشبان، تحدثوا قليلاً مع السيد أمام المنزل، ثم ذهبوا، وبعد فترة عادوا فأخبرها السيد أنهم سيوصلونها الى مكان ربيع، صعدت الى

السيارة، والتعب قد أنهك جسدها النحيل، وبعد ساعتين ونصف الساعة من السير في الطرقات الوعرة، وصلوا، جلست تحت ظل شجرة، وهي تبكي، وإذ بشاب يجلس بالقرب منها، سألها: «لماذا تبكين يا حاجة فالآن سترين (سراج)».

سألته: أين هو؟ هل هو بخير؟

ـ أؤكد لك أنه على أحسن ما يرام، والآن سترينه بنفسك، ولكن قبلاً يجب أن تتوقفي عن البكاء.

قالت له: «لقد جئت له بأغراض وطعام يحبه.. ولكن أين هو، ألم يتأخر؟ وفجأة شعرت بالأرض تدور بها بسرعة، ولم تعد ترى شيئاً..

استيقظت في سيارة الاسعاف على حرارة دموع تساقطت من عيني حبيبها، وهو يحضنها بقوة، قال لها: هل أنت بخير يا أمي؟

أم زهير: «يا حبيب قلبي، اشتقت اليك، هل أنت بخير، لماذا فعلت هذا يا ربيع، لماذا يا حبيبي، أهكذا

تتركني، كنت سأموت بدونك، أهناك من هو أعزّ مني يا بُني؟

نظر إليها بحنوٍ كبير قائلاً: «نعم، نعم يا أمي، هناك من هو أعز».. وراح يبكي..

أم زهير: «أعزّ مني، من؟ انظر إليَّ ولا تبكِ، اسمع إذا كنت نادماً استطيع أن أتكلم مع الأخوة وسيسمحون لك بالذهاب معي، ولكن لا تبكِ».

ربيع: «أنا لا أبكي لأني نادم، ولكن أبكي على عذابك، أبكي عليك يا حبيبة قلبي».

أم زهير: «ألن تأتي معي»؟

ربيع: «لا يا أمي، ولكن لا تقلقي فبعد ثلاثة أيام إن شاء الله أكون في بيروت، ولكن عِديني أنك ستهتمين بنفسك».

أم زهير: «بعد ثلاثة أيام»؟!

ربيع: «لن أتأخر هذه المرة، بإذن الله».

أم زهير: «انتبه الى نفسك»، ثم التفت إلى الأخوة:

«انتبهوا لربيع»..

عادت أم زهير أدراجها الى بيروت، رآها تبتعد رويداً رويداً، فسارع ظله اليها كطفل صغير يتعلق بأذيالها، يغفو في دفء حضنها، يناديها في كل يوم ألف مرة: «أمي»، يغنيها:

خذيني إذا ما رجعتُ وشاحاً لهدبك
وغطي عظامي بعشبِ
تعمَّد من طهر كعبك..
إذا ما لمستُ قرارة قلبك، أمي!(*)

ولكنه بقي واقفاً، ينظر اليها والغياب يلفها.. رفع يده ملوحاً بالوداع، وقف رجلاً يحمل الهموم والأحزان في قلبه، وفي يده بندقية اختارها رفيقة الدرب الطويل، وعيناه تنظران الى السماء، وقد انحدرت على خديه دموع الشوق.. الشوق لله.

(*) قصيدة: إلى أمي، ديوان محمود درويش، المجلد الأول، ص ٩٣.

ربيع

قليلاً ما كان يمكث ربيع في البيت، والأوقات التي يجلس فيها بين أخوته نادرة جداً، فهو إمَّا في الجنوب، أو في برج البراجنة..

وحين كان يأتي متعباً من العمل ينام على السجادة في الصالة، فتقول له والدته: «انتظر كي أضع لك فرشة حتى تنام، أو نم على السرير».. فيجيبها: «ليس هناك أفضل من النوم على الأرض يا أمي».. تنتظره لكي يغفو وهي جالسة على الكنبة تنظر اليه وتتأمله. وإذا ما أحسَّت أنه غرق في النوم، تقوم لتتفقد جسده، فتراه تارة محروقاً وأحياناً كثيرة مليئاً بالجراح، وقدماه غالباً متورمتان، فيستيقظ على

لمساتها ويسألها: «ما بكِ يا حبيبة؟» تبكي وتقول له: «مـا هـذا يا ربيع؟ ممَّ هذه الحـروق، وهذه الأورام؟» فيجيبها والبسمة تعلو ثغره: «لا شيء، لا تحملي همَّاً، ما رأيك يا حبيبة أن تسقيني فنجاناً من الشاي؟».

ـ حالاً يا «عمري».

ـ وسأهيىء النرجيلة بنفسي، أتعلمين مشتاق أنا لشرب الشاي من يديك الطاهرتين.

يجتمع الأخوة، ويبدأون بالحديث والنكات، وقليلاً ما كان يشاركهم به، فهو الصامت المبتسم دائماً، الناظر اليهم بحنان وحب كبير، هو المشتاق اليهم والمهاجر من دنياهم الى حيث تطمئن النفس.. وحين يمر وقت قصير، يدخل الى غرفة النوم يقفلها جيداً ويصلي، هذا إذا ما تعذَّر عليه الذهاب الى المسجد، وقليلاً ما يحدث هذا ـ ثم يرتدي ثيابه، والى برج البراجنة. عاتبته أمه كثيراً لقلة الوقت الذي يقضيه في البيت، فمعظم وقته يمر وهو في برج البراجنة

حينما يأتي من المرابطة، ولكنه دائماً يجيب على تساؤلاتها بابتسامة رقيقة، وبأنه قليلاً ما يراهم بعد تفرغه في الجنوب، فتسأله قبل خروجه: «أتريد مالاً؟».

- لا، شكراً..

- ولكنك لا تملك أجرة الطريق..

- ولا يهمك..

ثم ما يلبث أن يسأل أخته «ابتسام» بهمس: هل لديك صرافة ٢٠ دولاراً؟».

فتجيبه: «لا».

- إذن اعطيني الفاً أجرة الطريق، فالدراجة ليست معي.

دائماً كان يتحجج بالعشرين دولاراً وهو لم يملك في عمره هذا المبلغ، فراتبه الذي يتقاضاه لا يكفيه لمدة أسبوع، فقد كان يحمل همَّ إخوته أكثر مما يحمل همَّ نفسه، لذلك تراه دائماً يؤمّن لهم بعض

المساعدات من جمعية العطاء الخيرية الاجتماعية التي تعمل فيها «ابتسام» متناسياً نفسه وهمومه، وكان ذلك يشعره بالسعادة الكبيرة.

في عصر أحد الأيام، حدَّثته والدته قائلة:

ـ «ما رأيك أن تتزوج يا ربيع؟».

كانت «أم زهير» تعرف أنه لا يملك فلساً واحداً للزواج، لكن طلبت هذا الطلب ظناً منها أن مسؤولية الزواج ستحدّ من تصرفاته، فأخبرها أنه فكَّر في هذا الأمر وقد وجد الانسانة المناسبة التي ستشاركه ـ ما تبقى من العمر ـ.

ـ ومن هي يا ربيع؟

ـ فتاة طيبة، ولا يهمها أبداً المظاهر.

ـ إذاً كنت تريد المال يا حبيبي، خذ مجوهراتي، وبعها، أما بخصوص المنزل، فالبيت في جباع خالِ تستطيع أن تسكن فيه، خذ ما تريد، ولكن تزوج وانتبه لمستقبلك يا ربيع.

ـ مستقبلي في الجنوب يا أمي، ثم ان الفتاة التي سأرتبط بها، لن تطلب من زخارف الدنيا شيئاً.

ـ وأنت، أين تعرَّفت عليها؟

ـ تعرَّفت عليها خلال خضوعي لدورة الاسعاف الحربي.

ـ ومن هي؟

ـ قلت لك ستتعرفين اليها، فهي الأغنية الوحيدة في حياتي يا أمي..

سراج

في عشية أحد الأيام، نظر سراج الى رفيق الدرب وصديق العمر الحاج كرَّار (الشهيد حسن مريش) سائلاً إياه:

ـ أتملك المال؟

ـ لا، وأنت؟

ـ طبعاً لا، هل تناولت عشائك؟

ـ لا.

ـ ما رأيك أن نتعشى على حسابي الليلة؟

ـ ولكن ليس لديك مال أليس كذلك؟

ـ سترى كيف سنتعشى عشاءً مميزاً الليلة.

دخل سراج الى مسجد الإمام الحسين عليه السلام،

حيث كان أصدقاؤه يجتمعون، فقال لهم: «هناك أحد الأخوة بحاجة الى مساعدة، فليتبرَّع كل واحد منكم بما يستطيع»، وراح الأخوة يعطونه مالاً حتى جمع مبلغ خمس وأربعين ألف ليرة، خرج الى الحاج «كرَّار»، وطلب منه أن ينادي عدداً من الأخوة، وتناولوا عشاءً، ألذ ما فيه، أن الأخوة لم يصدقوا أن الذي قام به سراج مقلباً مرَّ عليهم مرور الكرام..

هكذا هم المجاهدون، عائلة واحدة، تراهم أحنُّ على بعضهم من أنفسهم، ينامون معاً، يأكلون معاً، ويجاهدون معاً، وكثيراً منهم من يستشهدون معاً.. وكم طاب لهم الجلوس ليلاً وراء الصخور أو بين عشب البلاَّن، وكم ساروا سوياً ليالٍ طويلة، فهم وحدهم الذين يشعرون بلذَّة الأنفاس المصحوبة برضا الله، وحدهم هم الذين ينامون، وبين الجفون تستيقظ الأماني: «اللهم ربي ارزقني شهادة مباركة»..

وإذا ما اجتمعوا تحت سقف واحد في منزل

أحدالأخوة، تبدأ النكات والحكايات وهم يداورون النرجيلة على بعضهم، ويشربون الشاي، ويذكرون المواقف التي يتعرضون اليها وهم في عملهم الجهادي، فبعضها مضحك، وأغلبها مبكٍ، لكن قلوبهم الصادقة، التي تنبض باليقين، ترى كل شيء هيّن لأنه بعين الله.

فهم المؤدون صلاتهم في محراب الجهاد، التالون دعاءهم بأيدٍ تملؤها الدماء، وقد كان هناك عادةً عند سراج لاحظها رفاقه عليه، أنه دائماً بعد أن ينتهوا من قراءة الأدعية، وخاصة دعاء كميل، يأخذ إحدى زوايا المسجد سنداً له، ويقرأ الدعاء من جديد. فسأله أحد الأخوة عن السبب، فأجابه: «لأني حين أقرأ الدعاء وحدي أشعر أني قريب من الله أكثر»، فينصرف من ينصرف من المسجد، ويبقى هو، وقلبه ينادي: «فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنَّ إليك بين أهلها ضجيج

الآملين، ولأصرخنَّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينَّ عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينَّك أين كنت يا وليَّ المؤمنين، يا غاية آمال العارفين، يا غياث المستغيثين، ويا حبيب قلوب الصادقين..».

وتمر الأيام.. وسراج وأصدقاء الدرب الأوفياء على العهد ماضون، وواحداً بعد الآخر.. بدأوا يرحلون، ﴿**فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً**﴾، ففي ١٩٩٤/٦/٣، استشهد «أيمن بعلبكي»، وخلت شوارع جباع من الدرَّاجة الحمراء التي كانت تجوبها ليلَ نهار، وغابت ضحكته الهادئة لتختبىء خلف الأماني التي طالما حفرها على صخور المحاور، وكان ذلك خلال مواجهة مع دورية صهيونية على طريق بئر كلاَّب ـ الريحان(*)، كان سراج حينها في بيروت، ولما عرف بالخبر، دخل الى غرفته باكياً،

(*) استشهد خلال هذه المواجهة الشهداء الأبرار: أيمن بعلبكي، حسن أحمد سعد، ونصر الله عبد الحسن ضاهر.

نادباً حظه، سألته والدته: «ما بك يا ربيع؟» أجابها والدموع من فرط الأوجاع أضحت حمراء: «لقد استشهد «أيمن» الآن لم يعد هناك أيمن كي تمنعيني من رؤيته، فأنا لن أراه بعد اليوم، ولن أجده، لا على المحور، ولا في مسجد جباع، ارتحت الآن من «أيمن»؟ يا رب، لماذا هو ولست أنا، ما الذي فعلته في عمري حتى لا أنال الشهادة، قولي لي يا أمي، ما الذي فعلته؟».

أم زهير: «أيمن كان مثل ولدي، وربما كنت قاسية عليه في بعض الأحيان، وذلك لأني كنت خائفة عليك، والآن، وصل أيمن الى الغاية التي ضحّى لأجلها، فليسامحني الله، وليسامحني أيمن».

لم يكن أيمن وحده الذي رحل، فالسهرات الجميلة والدافئة التي كانوا يقضونها، والمعارك التي كانوا معاً يخوضونها، بدأت تخلوا من وجوههم الشابة تاركة لعناكب الفراغ أن تستوطن زوايا الذكريات، وفي ٢١

آذار عام ١٩٩٦، أضاء في الجنوب قمراً بساماً، كان رفيق العمر.. لقد استشهد «علي أشمر»، جلس «سراج» أمام شاشة التلفاز ودموعه تغسل وجهه، وهو يستمع الى الكلمات الأخيرة التي قالها «علي»، نظر اليه وقد أنير وجهه بنور الله، وصوته كان معزوفة الوصول الى حيث الخلد: «أذكّركم يا أخوتي ببعض ما هو أساسي في خطنا هذا، إن طريقنا الجهادي هذا طريق شاق وطويل ومليء بالمصاعب والابتلاءات، لذلك فاعملوا على بناء روحيات عالية وطيبة، نازعين من صدوركم كل الأدران والحجب التي تبعد الانسان عن ربه.. واجعلوا صور الشهداء على مرّ العصور أمام أعينكم واسعوا إلى تحقيق الأهداف التي استشهدوا من أجلها..».

نظر ربيع إلى اخته «ابتسام» قائلاً لها: لماذا اختاروه هو، لماذا لم يختاروني، لقد انتسبت الى سرايا الاستشهاديين حتى أسرع بالرحيل، ولكن ما

الذي فعلته حتى يبقى هذا القلبُ نابضاً بالحياة، والروح تحلّق في عالم ليست هذه ارجاءها؟..

ألا ليت الشهادة تكون قريبة.. وتنهَّد تنهيدة المشتاق، داعياً الله: «يا رب، فأطالبك أن ترزقني شهادة، مطهَّرة، أنا اخترتها كفَّارة عن ذنبي، شهادة قلَّ نظيرها، يتفتت فيها جسدي..»(*).

في إحدى الليالي، وبعد غياب طويل عن البيت، عاد سراج منهكاً، دخل مسرعاً إلى غرفته حتى لا يراه أحد من الساهرين في الصالة، لحقته «ابتسام» سألته: حمداً لله على سلامتك، كيف أنت، لقد تأخرت هذه المرة يا حبيبي، سأوقظ أمي لتراك».

سراج: «لا، دعيها نائمة».

نظرت ابتسام الى سراج، فإذا بجسده مليء بالجراح: «يا الهي، ما بك يا ربيع؟»..

سراج: «لا شيء، وابتسم..».

(*) من دعاء لسيد شهداء المقاومة الإسلامية السيد عباس الموسوي (رض).

لكن بسمته لم تكتمل، فقد انحدرت الدموع ـ دون أن يشعر ـ على خديه..

ـ ابتسام: «ماذا هناك؟».

ـ جهاد.. لقد استشهد جهاد.

ـ يا إلهي.. ما الذي تقوله؟!

ـ اخفضي صوتك، أرجو منك ألاَّ تقولي لأحد، لم نستطع أن نسحب جثتهم.

ـ ومن غير جهاد؟

ـ عيسى، وعلي(*)، ولكن لا تخبري أحداً، اتفقنا..

كانت شقيقة جهاد شبيب (حزين) صديقة ابتسام، وقد قالت في يوم من الأيام لسراج، انه اذا استشهد حزين، فيبقى سراج هو السلوى بعده..

انها المرة الأولى التي يفصح فيها سراج لأحد عمَّا يختلج في قلبه، لكن وجع الفراق قد أنهك القلب

(*) استشهد في هذه العملية كل من الشهداء الأبرار: جهاد شبيب، عيسى قطيش، علي عبد الواحد، بتاريخ ٧ حزيران ١٩٩٥، في جبل الرفيع.

المشتاق إليهم، ومما زاد في عذابه، أنهم كانوا جميعاً في عملية واحدة، هم استُشهدوا وبقي هو.. ويا ليته بقي!!

ذهب الساهرون، وغفت العيون، وبعد عناء طويل، ألقى سراج رأسه على الوسادة في الصالة محاولاً أن يغفو، ولكن ما إن استقر رأسه على الوسادة، إذ بالهاتف يرن، قال لابتسام: «انه لي»..

ـ ابتسام: «ومن سيكون في منتصف الليل؟».

رد سراج على الهاتف بكلمتين: «حسناً أنا آت»..

ارتدى سراج ثيابه بسرعة، وقال لابتسام: «أنا ذاهب».

ـ ابتسام: «ما الأمر؟».

ـ سراج: لا شيء، أوصلي سلامي إلى أمي وأبي.

وأمام المنزل، لاقاه أحد أصدقائه على الدراجة، وسرعان ما لفَّهم الظلام.. وفي تلك الليلة تمت عملية سحب جثث الشهداء، وعاد «علي» و«عيسى» و«حزين».

نظر سراج الى حزين، وقد تشوَّه وجهه الملائكي: «لمن تركت وحدتي يا حزين، أتراك الآن ابتسمت؟ الآن وقد عرفت معنى السعادة، هنيئاً لك.. احمل سلامي الى «ايمن»، الى «علي»، الى كل الشهداء، وقل لهم اني لن أتأخر بإذن الله، وليشفعوا لي عند الله، نَم قرير العين يا حزين، يا دمعة القلب التي لن تجف.. بأمان الله..».

وقبل أن يستشهد سراج بيوم واحد، مرَّ ورفاقه على قرية «جبشيت»، وكانت المرة الأولى التي لم ينزل فيها سراج لقراءة الفاتحة على قبر «حزين» فاكتفى بأن نظر الى روضة الشهداء قائلاً: «انتظرني يا جهاد.. لن أتأخر.. انتظرني أنا آتٍ إليك..».

﴿إن الذين آمنوا، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾.

الأغنية الوحيدة والأخيرة

الزمان: ١٩٩٦/٨/٢٢

سراج: هذا قلبي.. وجعي.. آلامي، وآخر ما تبقى من عمري ومن سهر الليالي، قدري لونه أحمر، وكل الآفاق في زمني لونها أحمر.. امتطي الموت صهوة اشتياق للباري، هذا أنا، وهذا كتاب الله بيننا، أعطيك نفسي، يا كل نفسي، أتقبلين بما تبقى من عمري؟

زبيدة(*): لك العمر يا ربيع، إن أردت، لك العمر، لك ما تبقّى من الأمنيات ومن السهر، ولك الدمع الذي ترويه الجراح، لك ما أردت.. حياتي أعطيك لو

(*) زبيدة حمود: هي خطيبة الشهيد ربيع محمد وهبي، استشهد بعد خطوبتهما بواحد وعشرين يوما فقط.

أردتهـا، ودع طيـفك ها هنا، يخـفف عني إذا مـا ارتدتني مناديل الأحزان..

سـراج: الرحـيل يطرق أبواب الأيام.. والأرض عطشى للنجيع..

زبيدة: ارحل يا حبيب، فمن سار نحو الله مطمئناً، عمره لا يضيع، هذا قلبي، خذ من دماه زيتاً لسراج أيامك، واذكرني بقلبي الكسير عند فاطمة عليها السلام واشفع لي عند مليك مقتدر، وهو ربنا وإليه المصير..

سـراج: هذا وعد الله بيننا، هذا عهد الله بيننا، شهادة وشفاعة..

على عتاب الخريف

مساء يوم الخميس الواقع فيه ١١ أيلول عام ١٩٩٦، ذهبت كل العائلة الى جباع لقضاء فترة من الزمن، ولم يبقَ في بيروت إلاَّ ربيع، على أن يلتحق بهم هو وزبيدة حالما ينتهي من عمل أُوكِلَ إليه وعليه إنجازه.

وفعلاً، نهار السبت، كان ربيع في جباع، كانت الساعة تشير الى الواحدة ظهراً، وكانت والدته بانتظاره منذ الصباح، وما إن وصل حتى ناداها من تحت شرفة المنزل: «ماذا لديك من طعام، سأموت جوعاً». كانت المرة الأولى التي يطلب فيها ربيع من أمه أن تضع له طعاماً، حتى هي لم تصدق أنه فعل

ذلك، ولكنها سرعان ما حضَّرت له الطعام، وجلست تأكل معه بعد أن اعتذر الأب عن ذلك لانشغاله، وراح ربيع يمازحها ويتكلم معها بمواضيع لم يتحدث فيها أبداً، ولكن شعورها بالسعادة لذلك لم يخفِ في نفسها الدهشة والاستغراب اللذين كانت تدثرهما في نفسها بكلمة «إن شاء الله خير».

تلك الليلة كانت السهرة الأخيرة له مع أهله وأخوته، فقد اجتمع الأقارب جميعهم ودارت أحاديث شتى، ذكريات ومستقبل، وحكايا من حكايات الزمان الغابر، وأحداً لا يستطيع أن ينكر أنها كانت المرة الأولى التي يشارك فيها ربيع بهكذا سهرات، كل أخوته كانوا يستغربون للأمر.. وحين انقضت السهرة، وذهب الأقارب، نظر الى شقيقته «ابتسام» قائلاً لها: «ما رأيك أن نخرج الآن وزوجك؟».

ابتسام: ولكن الليل قد انتصف».

ربيع: «لا بأس لن نتأخر..».

صعدوا في السيارة، وراح ربيع يستمع الى نشيد «الشعب الصامد حزب الله». كان الصوت عالياً، وقد جلس ربيع على شباك السيارة، وراح يرفع بقبضة يده عالياً وهو يقول: «النصر الواعد حزب الله»، وقبل أن يخرجوا من القرية التقوا بشقيقتهم غادة وزوجها، فطلبوا منهما أن يرافقاهم، وفيما كانت السيارتان تسيران، وإذ بحاجز للجيش يوقفهما، وبما أن «ربيع» كان في سن خدمة العلم، كان لا بد من أن يحتجزه الضابط، فطلب من ربيع أن يعطيه الجهاز الذي بحوزته ـ وكان ربيع قد حمله معه بعد أن طلب منه رفيقه أن يبقى طوال الوقت على السمع لأن الوضع العسكري متوتر ـ ولكنه رفض أن يعطيه إياه، وبعد فترة طويلة من الزمن، قَبِلَ أن يسلّم الجهاز ولكن بعد حضور اللجنة الأمنية. وحين وصل أخوة من اللجنة الأمنية قام ربيع بتسليم الجهاز بعد أن محا كل الشيفرة عنه حفاظاً على السرية التامة،

وقضى الليلة في «الحبس»، ولكن بعد أن أنهك الضابط والجنود «بعناده». في اليوم التالي سأله اخوته، بعد أن أخرجوه من النظارة: «كيف قضيت الليلة؟»، فضحك كثيراً وقال: «لن تصدقوا ماذا فعلت؟».

- وماذا فعلت؟

ربيع: وضعوا معي في الزنزانة جندياً معاقباً، فسألته: ألديك عمل؟ أجابني: لا، فطلبت منه أن يقوم «بطرطقة أصابعي»..

وهذا ما كان دائماً يطلبه ربيع من اخوته (وطبعاً في اطار المزاح).

صباح الثلاثاء، توقفت سيارة أمام المنزل، ونادى أحد الأخوة الذين بداخلها «سراج»، تحدث سراج معهم قليلاً، وما لبثت هذه السيارة أن ذهبت، صعد ربيع الى المنزل، هيَّأ حقيبته، سألته أمه إلى أين تذهب؟ فأجابها: لديَّ دورة ثقافية في صور، سلمي

لي على كل اخوتي، وأبي، وأوصيك، إذا حدث قصف، أن تأخذي زوجة رفيقي (وسمى اسمه) وأولادها إلى بيروت، فهي لا تعرف أحداً هنا. وبعد ان انتهى من توضيب حقيبته، أكَّد عليها لأكثر من مرة ألاَّ تنسى زوجة صديقه وابنيها، فسألته حينئذٍ: «أخبرني اذا كان الوضع متوتراً لنذهب الى بيروت»، فأجابها: «لا تخافي ليس هناك أي شيء حالياً».

ذهب سراج، وبقيت الحيرة في قلب «أم زهير» مشتعلة، ولكن ما جعل الاطمئنان يسري الى قلبها، إخباره إيّاها أنه سيلتحق بدورة ثقافية.

في يوم الخميس ١٩ أيلول، نفَّذت اسرائيل أعنف عدوان لها على الجنوب منذ عدوان عناقيد الغضب في نيسان ١٩٩٦، فشنَّت طائراتها خمس غارات على تلال اقليم التفاح، وصولاً حتى أطراف مدينة النبطية، وكانت قوات الاحتلال الاسرائيلي قد استهلَّت اعتداءاتها على منطقة اقليم التفاح اعتباراً

من التاسعة والنصف صباحاً، حيث قصفت بشكل عنيف وعشوائي ومتواصل تلال ومرتفعات مليتا، جبل صافي، مزرعة عقماتا، اللويزة، جبل الرفيع، الوادي الأخضر، مجرى نبع العلاسة، الى محيط وأطراف عدد من قرى الإقليم.

كما شاركت في الاعتداءات المروحيات الاسرائيلية بكثافة، حيث عمدت الى تمشيط أودية وأحراج منطقة اقليم التفاح بالرشاشات الثقيلة في ظل اطلاقها البالونات الحرارية تفادياً للمضادات الأرضية التي أُطلقت باتجاهها ومن بينها صواريخ (سام٧) أطلقتها المقاومة(*).

في هذه الأثناء كانت العائلة لا تزال في جباع، وما ان سمح الوضع لها بالهروب نحو بيروت، حتى فعلت ذلك، ولم ينسوا زوجة صديق سراج الذي كان يقوم بمهمة مع الأخوة. وفي بيروت لم تعد أم زهير

(*) السفير ١٩٩٦/٩/٢٠.

تستطيع أن تهدىء اعصابها، فقد حملت صورة ربيع وهو في ثياب العرس، وراحت تخاطبه وقلبها يحترق، تدعو تارة للأخوة بالنصر والتوفيق، وتارة أن يعيد الله ربيع بخير، وكانت تقف على الشرفة، لتسمع آخر أخبار الاعتداءات على الجنوب، حيث أن حزب الله قد سيَّر سيارات مزودة بمكبرات للصوت في الضاحية وبيروت لتبث أخباراً عن الوضع الملتهب في اقليم التفاح، والتطورات الجارية، خصوصاً وأنه في تلك الفترة كانت وسائل الاعلام غير المرخَّص لها ممنوعة عن بث الأخبار السياسية، أما الوسائل المرخَّص لها فلم تبث أخباراً تفصيلية عن العمليات العسكرية.

عملية عقماتا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قل هل تربصون بنا إلاَّ إحدى الحسنيين، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم من الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، فتربَّصوا إنا معكم متربصون﴾.

صدق الله العلي العظيم

صباح يوم الخميس ١٩/٧/١٩٩٦، قوة صهيونية معادية كانت تحاول التقدم باتجاه عقماتا، فنصب المجاهدون كميناً محكماً لها، وعند وصولها الى نقطة المكمن باغتوها بنيران غزيرة من اسلحتهم الرشاشة والصاروخية ما أدى إلى وقوع اصابات عدة في صفوف القوة المعادية، وأكَّدت المعلومات أن أكثر من

٨ جنود صهاينة أصيبوا في اللحظات الأولى، مشيرة إلى أن الاشتباكات استمرَّت لساعات، عمل خلالها المجاهدون على الالتحام مع الجنود من مسافات قريبة ما أدى الى وقوع المزيد من الاصابات في صفوف القوة المعادية، وكان جنود الاحتلال يفرون من أمام المجاهدين وهم يصرخون هلعاً وخوفاً بعدما أطبق المجاهدون الطوق عليهم، وعمل العدو على زج طائراته الحربية ومروحياته في المواجهة، وقامت بتمشيط المنطقة[1]، ونقلت وكالة الصحافة الفرنسية من مصادر أمنية أن جنديين صهيونيين، وهما الملازم «تسوريت باريف» والرقيب أول «زوهارمنين» قد قُتِلا وأن أحد الجرحى الإحدى عشر حاله خطرة جداً، واثنين جراحهم خفيفة، وأن أحد الجرحى ترك المستشفى صباحاً، وينتمي جميع عناصر القوة الى لواء «غولاني»[2].

(١) صفحات عز في تاب الأمة ١٩٩٦.
(٢) السفير ١٩٩٦/٩/٢١.

بيان المقاومة الاسلامية الذي صدر يوم ١٩٩٦/٩/١٩ إثر عملية عقماتا:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾. صدق الله العلي العظيم

ضربة جديدة وجّهها أبطال المقاومة الاسلامية صباح اليوم لقوات الاحتلال الصهيوني على تلال اقليم التفاح، مثبتين بالفعل المقاوم انهم بالمرصاد لكل محاولات الغدر الصهيوني، وانهم في جهوزية تامة لصدّ أي عدوان، ولتكبيد العدو الخسائر الفادحة في عديده وعتاده.

فعند الساعة التاسعة وخمس وثلاثين دقيقة من صباح اليوم الواقع فيه ١٩٩٦/٩/١٩ حاولت قوة صهيونية معتدية التقدم باتجاه تلة عقماتا في إقليم التفاح تحت غطاء مدفعي كثيف فكمن لها مجاهدوا المقاومة الاسلامية، ولدى وصولها الى نقطة قريبة

من مـرمى المجـاهدين أمطروها بوابل من نيـران أسلحتهم الرشَّاشة والصاروخية، واندلعت اشتباكات عنيفة استمرَّت أكثر من ٦٠ دقيقة أسفرت عن سقوط عدد من القتلى والجرحى في صفوف العدو.

إن المقاومة الاسلامية إذ تعاهد شعبها انها ستبقى العين الساهرة على أمنه وسلامته واليد المدافعة عنه، تؤكد عزمها على مواصلة الجهاد ومقاومة العدو حتى إزالة الاحتلال والتحرير الكامل.

﴿وما النصر إلاَّ من عند الله العزيز﴾.

المقاومة الاسلامية

تفاصيل العملية:

شعر أحد الأخوة المجاهدين أن هناك حركة غريبة في مزرعة عقماتا، وبعد الاستطلاع، اكتشف أن قوة صهيونية معادية تحاول التسلل، فكمن الأخوة المجاهدون لها، وما أن وصلت القوة الصهيونية حتى

راح الأخـوة يمطرونهـا بوابل من الرصـاص ومن مسافات قريبة، ومن بين الدخان، وعلى أصوات أزيز الرصاص، دوى صوتٌ تردَّد في أعماق قلب سراج، فنظر سريعاً ليجد الحاج «كرار» قد سقط جريحاً على الأرض، وركض نحوه محاولاً سحبه، فقال له «كـرار» وبه شيء من الروح: «إرحل، تسـتطيع أن تنسحب، دعني هنا».

ـ لا، لن أترك..

لكن الحاج «كرار» لم يتأخر بالرحيل، فسرعان ما انطفأ ضوء الحياة في مقلتيه، وأسلم الروح، لتشرق على وجهه أنوار متلألأة هي أنوار الشهادة..

كان الحاج «كرار» دائماً يوصي بأن يأخذ «سراج» كل ممتلكاته لأنه سيتزوج.. ولكنه ما علم أن أول ما أورثه إياه هو الشهادة..

فبعد أن استُشهد «كرار» تقدم «سراج» نحو القوة الصهيونية وسلاحه لم يهدأ عن صبّ جام الغضب

والحقد عليهم، لم يأبه بصوت الأخوة وهم ينادونه، بل تقدم وتقدم، إلى أن استقرَّت إحدى الرصاصات في يده اليمنى، فحمل سلاحه باليسرى والدم ينزف بشدة منه، واستمر بالقتال على مسافة أمتارٍ قليلة، إلى أن باغته أحد اليهود، وأرسل رصاصة عمياء أطفأت شمس الربيع الدافئة بين رئتيه.. فهوى صريعاً على الأرض..

احتضن تراب عقماتا النفَسَ الأخير له، وامتدت دماؤه زيتاً لقناديل الجهاد المزروعة على ضفاف التلال والأودية.

عانقت عقماتا رجلاً كان رفيقاً لها، بل لكل محور في إقليم التفاح.. وأينعت من جسده الطري آلاف الزنابق، وصار الفجر يبزغ من جبينه الملون بالدماء..

هكذا يرحلون.. صادقين، أوفياء، على العهد باقون، في قلوبهم ترتسم تشعبات جبل عامل ونبضاتهم تخفق حب الله.. سبحانك ربي، ها إنهما

حرمان تهوي اليهما القلوب.. بيتك المعظم، وهذا الجبل الشامخ باسمك أنت يا الله.

❖❖❖❖❖

في هذه الأثناء لم تستطع «أم زهير» من أن تكبت ألمها، فشعرت بالنار تأكل في قلبها، كان كل شيء يؤلمها، ولا تعرف لماذا، اجتمع أولادها حولها، حاولوا أن يخففوا عنها، خاصة وأن «ربيع» أخبرهم أنه في دورة ثقافية، وقد ذهب أبو زهير الى القرية كي يطمئن على ربيع، لكن ما في قلب الأم، لا أحد يعرفه غير الأم..

ومع خيوط الفجر الأولى، واحداً بعد الآخر، عرفوا أن «ربيع» قد استُشهد..

سألتهم: «ماذا هناك»، فأجابوها: «إن ربيع مصابٌ» فلم تصدق، عرفت لوحدها أنه استُشهد».

ربيع محمد وهبي وحسن قاسم مريش..

سراج وكرار..

توافد المحبون والأصدقاء الى برج البراجنة، وتسابقت الأكفّ لحمل النعش، هنا حبيبٌ وهناك آخر، وهذه المرة الأخيرة، يا شوارع البرج، ستلمحين وجهيهما، ارتفعت الأكف ملوحة:

بأمان الله، يا حبيب الله،

بأمان الله يا شهيد الله،

أخي ربيع شهادة مباركة،

أخي كرار شهادة مباركة..

أخريات الربيع

نظرتُ اليهم، واحداً واحداً، وقد اتشحوا بالسواد، وجدران المنزل امتلأت بصورك البهية وأنت مرتدٍ ثياب الجهاد..

نظرتُ إليهم.. وكل واحد منهم ينتفض قلبه كأنك تمر ملقياً السلام، وعطرك يفوح ليسكن زوايا الفؤاد..

حين جاء الأمين العام لحزب الله سماحة السيد حسن نصر الله معزياً، نظر الى «أم زهير» قائلاً: «لست وحدك من خسر سراج»، ونحن أيضاً خسرنا رجلاً يملك من الذكاء والحنكة قدراً كبيراً، لقد كان يحفظ كل حجر ومدر في المحاور المتقدمة من

الإقليم، بحيث إذا مرَّ أحد غيره على الطريق كان يعرف، لقد خسرت المقاومة شاباً من أشجع الشبَّان، ولكن هوّن ما نزل بنا أنه بعين الله».

ربيع..

هل فعلاً رحلت؟ أم أنك باقٍ ما بقي نبضٌ في الفؤاد.. يا ربيع عمري.. هاجرت السنونوات باكراً هذا العام، وحملت معها كل الأماني والأحلام لتزرعها في أعماق الشمس هناك، حيث لا معنى للبرد، ولا مكان للشتاء..

ربيع..

أشعر بأن حبيبات المطر بللت كل الدروب.. أيقظت كل القلوب.. غير قلبي، تراه يا «ربيع» صارت سماءً تزخر بالبروق والرعود!! ومن المطر!!

والحمد لله رب العالمين.

الثلاثاء الواقع فيه ٩ شعبان ١٤١٨هـ الموافق ٩ كانون الأول ١٩٩٧م.

وصية الشهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كُتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ صدق الله العلي العظيم

أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأشهد أن الإمامة والرئاسة لعترة سيد المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وأولاده من بعده الحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين وآخرهم قائمهم المهدي عليه السلام وأشهد أن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور واليه النشور.

وبعد، فأنا ربيع محمد وهبي أملي هذه الوصية وأنا بكامل الوعي.

أمي وأبي وإخوتي:

أريد أن أقول لكم إني كمسلم أؤمن بلطف الله ورحمته وأؤمن بالآخرة والحساب، يمكنني أن أستقبل الموت بنفس مطمئنة واثقة، وحينما التزم بحدود الله وأطبق تعاليمه في هذه الحياة فإن أولياء الله لا يزعجهم الموت، بل يعتبرونه بطاقة دعوة لدخول جنة الله تعالى حيث يقول الله تعالى:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

كما أقول ما دام الموت مصيراً حتمياً ومستقبلاً طبيعياً لكل انسان، فلماذا يترك الانسان يد الموت تفاجئه في أية لحظة فيأخذه دور الاستسلام والضعف أمام هجوم الموت المتوقع، فهنا أريد أن

أسألكم أليس من الأفضل أن يستلم الانسان المبادىء ويأخذ دور الهجوم على الموت وذلك حينما يحمل أهدافاً شرعية ولواءً مقدساً ويتبنى مسؤولية عظيمة فيقذف بنفسه بالأخطار ويخوض المغامرات والتضحية في سبيل الله، كما أقول لكم بما أنني سأموت لماذا أموت موتاً مجانياً وفي موقع ضعف بينما بإمكاني أن أموت من أجل قضية مقدسة، فيكون لموتي ثمن رفيع جداً، وبينما أنا لن أموت بل ستبدأ حياة جديدة خالدة لا نهاية لها حيث قول الله تعالى:

﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾.

ومن هذا المنطلق أصبح القتل في سبيل الله أمنية ألحّ إليها وأدعو الله تعالى أن يرزقني إياها ..

والدتي الحنونة: أيَّدك الله بلطفه ورعاك بعنايته، أمي يا أعظم كلمة نطق بها لساني ويا أول مدرسة

حسينية أرضعتني حب الشهادة على خط الحسين وزينب والعباس وأم كلثوم ورقية عليهم السلام .

والدتي: تعزي بعزاء زينب، وقولي عند سماعك نبأ شهادتي اللهم تقبَّل منا هذا الفداء، وأن يكون هذا اليوم هو يوم فرح وعرس وليس حزن، وأرجو منك أن لا تحزني وكوني صبورة..

وأرسل إليك عبر تلال صافي وأسلاك الشريط المحتل أجمل قبلات جهادية، فاقبليها مني هدية وزغردي فرحاً، لا تبكي عليَّ، هذا رجاء أرجوه منك ولا تلبسي السواد علي لأن شهادتي ليست إلى الحزن ولا الفشل حتى تبكي أو تلبسي السواد عليَّ، بل افرحي وابتهجي بعمل بطولي يبعث الى الاعجاب والافتخار.

أمي: ألا تريدين أن تقدمي قرباناً، في سبيل الله كزينب الكبرى وكيف ستواجهين الله فيما الزهراء تقدم شهداءها وأنت ليس لك أي شهيد..

أمي: كم كنت قاسياً عليك ومقصراً تجاهك، ولكن ليس بيدي الآن أي وسيلة سوى الرجاء بأن تسامحيني وترضي عني.

والدي العزيز: أوصيك بتقوى الله سبحانه والتزام الاسلام..

أبي: أوصيك بأن ترضى بهذا الموقف ولا تحزن وافتخر بهذا العمل وأوصيك بالاعتناء بأمي وأخوتي جميعاً، وأن تكون صابراً عندما تسمع نبأ استشهادي وخاصة أنك الذي علَّمتني منذ الصِغَر أن لا أرضخ لأحد من الطواغيت، فكيف أرى جنوبي يتألم وأنا جالس في البيت، والأئمة علَّمونا الوقوف في وجه كل متكبر وعدو للاسلام فعلينا أن نقاوم هذا العدو حتى النصر أو الشهادة، وهذا خط الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام والعلماء المجاهدين والشهداء على مر التاريخ..

وأخيراً أرجو منك المسامحة وعندما تسمع بنبأ

استشهادي واسِ نفسك بالامام الحسين عليه السلام الذي قُتِل أبناؤه وهو ينظر اليهم في كربلاء.

اخوتي: أوصيكم بالالتزام والسير على نهج القائد الخميني وكونوا دعاة للأمة الاسلامية..

وصيتي الى اخواني المجاهدين: إخواني المجاهدين، أوصيكم بالالتزام بخط ونهج حزب الله والحفاظ على المقاومة الاسلامية مهما كلّف الأمر من تضحيات لأن ذلك يؤدي الى رضا الله سبحانه وتعالى والأئمة المعصومين عليهم السلام وهي الأمانة التي تركت لنا وفي أعناقنا، أثبتوا على هذا الخط وحافظوا عليه، اتقوا الله حق تقاته.. وأسأل الله أن يحفظ سيدنا ومرشدنا الأمين العام السيد حسن نصر الله حفظه الله، وأن يطيل بعمر مرجعنا وقائدنا سماحة الامام الخامنئي دام ظله.

ربيع محمد وهبي (سراج)

خطكم الذي آمنتم به..

طريقكم الذي سلكتموه..

قضيتكم التي استشهدتم من أجلها..

آمالكم والأهداف..

أحلامكم والأماني..

دماؤكم لن تجف..

حضوركم ما زال قوياً وحاضراً..

ومقاومتكم هذه ستستمر..

لن تسقط البندقية من يدنا..

ولن تهدأ يدنا..

ولا الزناد..

أمين عام حزب الله، حجة الاسلام والمسلمين

سماحة السيد حسن نصر الله دام ظله

ملاحظة:

بما أنني لم أكن على معرفة شخصية بالشهيد «ربيع وهبي» فقد اعتمدت على الخيال لسرد الوقائع المروية، لذا أقدّم اعتذاري إذا كان هناك اي التباس في التفاصيل الدقيقة، مع الشكر الجزيل لكل الذين ساعدوني لانجاز هذا العمل المتواضع.